2001/6/1

شهادة في جوزف لبكي
زميلاً وصديقاً ومؤرخاً - باحثاً وعميداً

جوزف لبكي، زميلاً وصديقاً ومؤرخاً وعميداً، كلها صفات تمتزج معاً لتشكل في آخر الأمر تلك الشخصية الرقيقة التي رافقت مسيرة كلية الآداب والعلوم الإنسانية وطبعتها ببصمات المحبة والإخلاص والتفاني والإدارة الرشيدة والأصالة الأكاديمية.

عرفت د. لبكي كزميل لي في قسم التاريخ في الفرع الثاني أثناء الحرب التي عصفت بلبنان بعد عام 1975. كان قاسمنا المشترك في البداية هو علم التاريخ الذي تخصصنا به وهويناه معاً. كنا نناقش معاً قضايا أساسية تتعلق بحقبة اختصاصنا في هذا العلم، وهو العصر الحديث والمعاصر، ونحضر المؤتمرات ويتطلع كل منا على إنتاج الآخر ونلتقي على قواسم علمية ونختلف على أخرى ويتقبل كل منا المديح والنقد من الطرف الآخر. لكن سرعان ما تطورت علاقة الزمالة هذه الى محاولة استكشاف كل منا للآخر في خلقه وقيمه وسلوكه، وتحول هذا الاستكشاف الى تلاقي على مستويات إنسانية وأخلاقية ووطنية نتج عنه روابط صداقة حميمة. لقد أثبت جوزف لبكي أنه صديق يقدر للصداقة معناها شكلاً ومضموناً. فالصداقة في قاموسه هي الإخلاص والوفاء والتضحية والتجرد والصمود في الدفاع عن الصديق المحق. فلا أذكر يوماً طوال السنيين المنصرمة التي عرفته خلالها أنه أخلّ بتلك القيم الأخلاقية التي تربى عليها في منزل فاضل ومارسها في حياته الشخصية والمهنية والعلمية.

جوزف لبكي، الذي تربى على الزمالة والصداقة والتزم بهما وجعلهما من مكونات شخصيته الإنسانية، لا يختلف بتاتاً عن جوزف لبكي المؤرخ والباحث. فحب العلم والموضوعية والتجرد والعقلانية والابتعاد عن الأحكام المسبقة والبحث عن الحقيقة، جميعها صفات للباحث الأصيل تتصل بمؤرخنا القدير لبكي وتلتحم به. إلا أن لبكي يضيف الى تلك الصفات بعداً وطنياً في عملية التأريخ، خصوصاً وأن كتاباته ومؤلفاته ركزت بصورة أساسية على تاريخ لبنان الحديث والمعاصر. فالتاريخ بالنسبة إليه ليس حقلاً لتجربة التأليف ولا هو ملعب يتنافس عليه المتلاعبون، بل هو تجربة إنسانية خلاقة تصب في نهاية الأمر في علمية بناء الإنسان والوطن. فهو يأخذ العبر والتجارب من تاريخ لبنان الحديث والمعاصر (المتصرفية ولبنان ما بعد الطائف) ليشخص الداء ويقترح العلاج. وفي كل هذا وذاك، كان الوطن هاجسه الأول، كي يبقى بيتاً يحتضن الجميع. من هنا، تمنعه عقلانيته وموضوعيته من أن ينجرف كبعض المؤرخين وراء الغايات الطائفية والمذهبية والمناطقية الضيقة. فهو ابن الجبل بكل فخر، لكن مساحة قلمه وفكره تصل حتى أطراف البيت اللبناني البعيدة لتسجل بعلمية وحيادية حكاية الإنسان في بلاد الأرز. فضلاً عن ذلك، فهو "يتجول" بكل راحة في التاريخ الحديث والمعاصر، من المتصرفية ومسائلها وقضاياها وأحزابها، الى الصحافة اللبنانية والعربية، ويعرَج على الشخصيات اللبنانية وكنائس الشرق والتربيتين المدنية والوطنية. وقبل سنوات قليلة، بدأ لبكي يطل على التاريخ المعاصر. فوضع أحد أهم دراسته الناقدة في هذا الشأن حول قانون الجنسية لعام 1994 وكيف أن الطائفية – السياسية والتدخلات الإقليمية لا تزال تنخر أسس هذا الكيان الصغير وتفعل فعلها فيه.

عندما أخذت تأثيرات الحرب الأهلية تنعكس سلباً على الجامعة اللبنانية، وقف لبكي مع الأكاديمية والأصالة ضد الانفلات والتسيب. وتحولت محاضراته في الجامعة اللبنانية الى نوع من التثقيف السياسي- الوطني الذي يرتكز على تجربة الماضي وينطلق منها الى استشراف المستقبل. كنا نخوض معاً ومع زملاء آخرين "معارك" متواصلة في سبيل المعرفة وضد الجهل، من أجل الانفتاح العلمي على التيارات الثقافية والعلمية وضد الانغلاق والتقوقع. توجت هذه "المعارك" بما سمي يومها بمعركة الدكتوراه في الجامعة اللبنانية. فكان أحد أعضاء تلك اللجنة القليلة العدد التي وقفت بحزم وثبات من أجل الحفاظ على مستوى هذه الشهادة وأصالتها.

بين الأعوام 1993 و1997، انتقل جوزف لبكي الى حقل آخر من نشاطاته بعيداً عن اختصاصه، لكن قريباً من مكان عمله. فشغل منصب مدير الفرع الثاني في كلية الآداب والعلوم الإنسانية، وأثبت بما يتحلى به من خصال أكاديمية وإدارية، موهبة في التعاطي مع المهمة الجديدة. فلم يكبر لبكي بالمنصب الجديد، بل كبر المنصب به وعلا. ومن خلال حس إداري وخلفية حقوقية (إجازة في الحقوق) وانفتاح على الآخر، استطاع لبكي أن يطور العمل في الفرع الثاني لناحية إعادة تأهيل الجهاز الإداري، ووضعَ الموظف الكفء في المكان المناسب، هذا فضلاً عن تزويد الفرع بكل ما يحتاجه من تجهيزات. لقد فهم لبكي أن إدارة مؤسسة أكاديمية لا تنحصر في الشأن الإداري وحده. من هنا، حوّل الفرع الثاني الى منبر للثقافة والعلم. ولا مجال هنا لحصر المؤتمرات والندوات والمحاضرات التي عقدت برعايته وإشرافه ومشاركته، وكأنه أراد من خلالها أن يقوم بمسح شامل لكل النواقص في موضوعات البحث الأكاديمي في المجالات الأدبية والتاريخية والألسنية والعمران المدني والبيئة. كما نظر لبكي أن النشاط الاجتماعي بين زملاء الفرع الواحد وبين الفروع على أنه تكملة ضرورية لازمة لتفعيل العمل الأكاديمي. فالحياة الاجتماعية واللقاءات بين الزملاء ساعدت في الواقع على زيادة المعرفة بالآخر وبالتالي عقد أواصر الصداقة بين أصحاب الاختصاص في الآداب والعلوم الإنسانية. وفي مناخ الانفتاح هذا، نلتقي اليوم مع زملائنا وأصدقائنا في الفرع الثاني على الصداقة والمحبة.

ولا يحتوي قاموس جوزف لبكي على ما يبدو على مصطلحي الراحة والسكينة. فبعد شغله منصب المدير في الفرع الثاني، تبوأ منصب عمادة كلية الآداب والعلوم الإنسانية منذ عام 1997. وقد أدركت يوم تعينه حجم ما ينتظره من عمل شاق. ولا شك أن حضوره يومين أو أكثر في الأسبوع الى مقر الفرع الأول لإدارة شؤون الكلية الكبيرة، ساعد على توطيد العلاقة والتفاهم والحوار بينه وبين بقية الأساتذة. ودليلاً على ذلك هو تحول مكتبه كل ثلاثاء وخميس من أيام الأسبوع الى خلية نحل، بحيث كان على من يقصده أن يفتش عنه بروية بين جمهرة الأساتذة. وقد سألته في إحدى المرات كيف يستطيع العمل وهو محاصر بكل أصحاب الحاجات والمطالب. فأجابني إن ما يحمله معه الى البيت من معاملات يفوق حجم ما يقوم به من نشاطات في كل الفروع. فلا عجب إذاً أن يكون ثمن تفانيه المجاني لمصلحة الجامعة اللبنانية عموماً وكلية الآداب خصوصاً هو حرمان عائلته منه، وأن يكون فوق كل شيء على حساب صحته. ولا أزال أذكر أزمته الصحية الخطيرة قبل عام ونصف العام. فقد أصرّ بعد إجراء تلك العملية الجراحية الدقيقة له على إدارة شؤون الكلية من سريره في المستشفى، وبعد ذلك من منزله أثناء فترة النقاهة.

بعد أكثر من ثلاث سنوات من الاضطلاع بشؤون كلية الآداب والعلوم الإنسانية يغادر لبكي العمادة تاركاً وراءه الكثير من الإنجازات الجريئة. فعلى الصعيد علاقته بالأساتذة، عمل لبكي على تطويرها واعتماد مبدأ التفاهم والحوار بين أساتذة الكلية، مزيلاً بذلك كل الحواجز النفسية التي

تسببت بها الصراعات اللبنانية الأخيرة. فكان يشجع الأساتذة على الالتقاء عبر اختصاصاتهم وخارجها. ولم يقتصر الأمر في هذا المجال على الأساتذة، بل شمل الطلاب أيضاً. فكان لبكي أول من أطلق بعد الحرب اللبنانية حفل التخرج المشترك لكل طلاب الكلية، دون أي اعتبار للمنطقة أو الطائفة. وبروح ديمقراطية، أكثرَ من لجان الاختصاص بهدف جعل الأساتذة، وخصوصاً المميزين منهم، يشاركون في شؤون كليتهم، وأطلق عمل مجلس وحدة الكلية. وفعّل في الوقت نفسه الاجتماعات الدورة لمديري الكلية ورؤساء أقسامها.

وفي المجال الأكاديمي، وقف جوزف لبكي وراء إقامة العديد من الندوات والمؤتمرات العلمية، وعلى مشاركة الأساتذة من كل الفروع فيها. كما شكل لجاناً من كافة الفروع لدراسة مشاريع رسائل الدبلوم وأطاريح الدكتوراه من أجل عدم حصول خلل في المستوى والمعايير. كما كان وراء تنفيذ مشروع المناهج الجديدة في الجامعة. فاختار أفضل الأساتذة في حقول اختصاصهم ليشرفوا على تعديل هذه المناهج التي أعطت بعداً ثقافياً لمسألة التعليم دون الانتقاص من أهمية الاختصاص. وبعد سنتين، وتتويجاً لعمل دؤوب ومراجعات وتمحيص، وضعت المناهج الجديدة موضع التنفيذ.

وفي إطار النشاط الأكاديمي – المؤسساتي، يعود الفضل الى لبكي في اقتراح مشروع طموح هو "مركز البحوث والدراسات الأدبية" وإقراره من قبل مجلس الجامعة. لكن هذه الفكرة بقيت مشروعاً لعدم توفر الإمكانات المادية والمكانية. وفي الوقت نفسه، عمل لبكي على تعديل قانون التعاقد والتعيين والترفيع في كلية الآداب، بهدف اختيار الأستاذ الأكفأ والأرفع مستوى، وإنصاف المنتجين الباحثين منهم. كما وضع نظاماً داخلياً لكلية الآداب لضبط الشؤون الداخلية الإدارية والأكاديمية فيها لجهة تحديد المهام الموكلة الى العميد والمديرين ورؤساء الأقسام وحقوقهم، وحقوق الطلاب وواجباتهم. وعندما يغادر لبكي عمادة الآداب ليستريح بعد عناء طويل، تكون أول مجلة أكاديمية للكلية قد وجدت طريقها الى النور.

أخيراً، قد يطول الكلام عن جوزف لبكي، لكنه يبقى باختصار زميلاً عزيزاً وصديقاً وفياً وأستاذاً ناجحاً وعميداً أكاديمياً – وطنياً، في زمن يقل فيه العلماء ويكثر فيه المتطفلون على المعرفة والعلم، في مرحلة مهمة من تاريخ بلدنا يقل فيها الوطنيون ويتكاثر المتربصون والحاقدون.

عبد الرؤوف سنو

أستاذ في الجامعة اللبنانية